

شذرات من خطاب لغوي

قسم اللغة والأدب العربي
فصل الأحمر
جامعة جيجل

توطئة:

تريد هذه الأنطولوجيا أن تسافر بالقارئ سفرا خفيفا عبر مواقع لغوية متباينة ، وتريد بانتقالها من موقع إلى موقع أن تبين الكم الكبير من التنوع الذي يميز الظاهرة اللغوية ، فاللغة لعبت أدوارا كثيرة أصبحنا نعرفها جيدا وتلعب أدورا كثيرة نعرفها معرفة نسبية ولا بد أنها ستلعب أدوارا أخرى لم نعرفها بعد، لهذا انتقلنا بين ماضي الأداء اللغوي وحاضره ، ونظرنا إليه من زوايا عديدة : فحاة -دلالين- مفسرين للقرآن -نثر ويولوجيا -فلاسفة السنين- أدباء... إلخ .

فاللغة ظاهرة هلامية ، طفولية وعاقلة حكيمة فهي هلامية لأننا كلما طننا أنفسنا أخطنا بها إحاطة شاملة وجدنا أنفسنا دون محاصرتها بالقدر الذي أردنا أول الأمر ، وهي طفولية من زاوية كثيرة القلب ، مزاحية الظهور و القلب من حال إلى حال ، ثم هي عاقلة حكيمة إذا ما حللناها تحليلا عميقا للكشف عن الطبقات التحتية لأدائها .

أنطولوجيا مصغرة لا تهدف إلى إثبات شيء و نفي شيء ، لا تهدف إلى إنتصار ما ماعدا النصر الذي لا بد لأي قارئ من تحصيله متى ما قرأ شيئا ، أنطولوجيا عاشقة لا محرك لها سوى حب اللغة و عدم الملل من النظر إليها ألا يختصر أبو نواس هذه العلاقة قائلا :

يزيدك وجهه حسنا إذا زدت فيه النظر

إنها دعوة إلى النظر في أعطاف هذا الوجه ، وجه اللغة

أما العنوان فهو إشارة إلى عنوان كتاب رولان بارط الذي سافر في النصوص الكثيرة المتباينة و المنتشرة على اختلاف الأزمنة و الأمكنة و المواضيع و المؤلفين بحثا عن ظهور مقولة "الحب" . فعنون كتابه : شذرات fragment d'un discours amoureux من خطاب عاشق

هي ذي رحلة مثيلة (لا تدعي لا شمول كتاب بارط و لا طموحه) و لكنها تحاول الوقوف عند عتبات الإمتاع و الإفادة و نقل عدوى حب اللغة .

لماذا الدراسة الآن ؟

إحتوت معاجم المعاني العربية ("الغريب المصنف" لأبي عبيد ، فقه اللغة و "سر العربية" للثعالبي المخصص لأبن سيدة ، "كتاب التلخيص" لأبي هلال العسكري) على الكلمات العربية مرتبة حسب سياقاتها أولا و حسب التتابع التاريخي لمختلف الدلالات

التي تعاقبت على اللفظة الواحدة ، حتى إنه ليكون صواباً أن تختصر علم "فقه اللغة " في معرفة تحولات المعنى في مدار اللفظة الواحدة

وبعد أربعة عشر قرناً يأتي ميشال فوكو في خفرياته المعرفية لينتبه إلى خطأ كبير يرتكبه دارسو الخطاب و المحللون ، فهو يقول بعد أن يشير إلى أن النظرية النحوية إقصائية بالضرورة ، بل و إقصائية عن عمد مع سبق الإصرار و التردد : "هل ننهي من هذا إلى أن النحو لا يبدو منسجماً و متماسكاً إلا من الناحية المظهرية ، وأن هذا العدد العديد من العبارات و التحليلات و الأوصاف و المبادئ و النتائج و الخلاصات و الإستنباطات الذي عاش أكثر من قرن من الزمن باسم النحو لم يكن سوى وحدة زائفة ؟ ربما هذا صحيح . لكن هذا لا يمنعنا من اكتشاف وحدة خطائية شريطة ألا نلتمسها في جانب تناسق المفاهيم بل في جانب إبتاقها المتأني أو المتعاقب ، إختلافها و إفتراقها ، بل و تناقضها إن إقتضى الحال ، أي أن علينا ألا نبحث عن صرح المفاهيم التي بلغت من العمومية و التجريد حداً كافياً ، كي نتمكن عن طريقها من التوصل إلى المفاهيم الأخرى الباقية و ندخلها في البناء الإستنباطي ، بل أن عمل على تحليل أشكال ظهورها وتعبئتها"(1)

فإذا كان سوسير يرى ألا ضرورة للدراسة التعاقبية من باب كونها علماً لا ينفع ، و أن الجدوى كل جدوى في الدراسة الأنية التي تجعلنا نحيط من اللغة بما يهمنا و يشغلنا ، فإن ميشال فوكو (وهو حفيد من أحفاد سويسر) يرى أن طريق الدراسة التعاقبية تمر بالضرورة بالدراسة الأنية ، وأن ذلك يتم بالتقاط الطواهر الأنية طورا بعد طور إلى حذفهم الظاهرة المتزامنة معنا و التي نصفها بالأنية (بالنسبة إلينا) وهذا هو مفهوم الحفريات المعرفية التي يبدو أن قدامى لغوي العرب قد مالوا صوبها فطربا و دون نظرية منظر. الامساك بالخطاب متلبسا :

علمنا القرن العشرون أن اللغة ليست بريئة ، و علمنا عصر النهضة أن اللغة متطورة شئنا أو أبينا ، علمتنا الثورات المتعاقبة أن اللغة قد تؤدي بحيات الناس ، و علمنا المتصوفة في الإسلام أن اللغة محل الإلتقاء الناسوتي باللاهوتي ، و علمنا علماء الطليعة العرب من العاملين بحقل اللغة و الأدب معا (وكلهم جمعوا رواية اللغة إلى الإجتهد النحوي إلى رواية الشعر و النثر إلى الإجتهد البلاغي) أن السياق سيد الدلالة و أن اللغة ملكة إنسانية يفعل فيها ما يشاء ، فكانوا لا يأتون بجملته إلا و قبلها قال فلان عن فلان عن فلان

عن صاحب القول ، ولا يهمننا إذا شعر القارئ بالملل من سلسلة السانيد المهم صحة السند و سلامة النقل .

ويتساءل ميشال فوكو قبل معاينة أي خطاب : "من يتكلم ؟ من مجموع الأفراد المتكلمين له الحق في أن تملك هذا النوع من اللغة ؟ من مالکها ؟ من يفوض إليه هذا المالک حق التصرف فيها ، وممن يتلقى المالک ، إن لم نقل ضمانه الحقيقة ، فعلى الأقل حدسا و تخمینا بأن مايقوله حقيقة ؟ ما وضع الأفراد قانونا أو عرفا أو شرعا أو بصورة إعتباطية عفوية ، الذين ينفردون بحق التلغظ بخطاب من هذا النوع ؟ (2) . قل هذا أسئلة لا بد منها قبل معاينة الخطاب و قبل التطرق لمحموله .

والعرب "تحدد مفهوم اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " كما قال ابن جندي و تحدد و وظيفة اللغة بأنها هي " البيان " كما يقول الجاحظ ، أو الإنباء و الإخبار كما ذهب المعتزلة بشكل عام و القاضي عبد الجبار الأسد آبادي على وجه الخصوص . والبيان أو الأنباء يعنيان القدرة على التواصل بهدف نقل الخبرة والمعرفة من جيل إلى جيل داخل المجتمع الواحد ، أو من مجتمع إلى مجتمع و بكلمات أخرى فقد تحددت وظيفة اللغة بناء على ضرورة الإجتماع الإنساني ، واختلاف الإنساني عن غيره من الكائنات بحاجته للتواصل " (3)

أما المحدثون فيلخصون أفكارهم الكثيرة في التعريف التالي : "اللغة ظاهرة بسلوكولوجية إجتماعية ثقافية مكتسبة ، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الإختبار معاني مقررة في الذهن و بهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل و باللغة فقط صار الإنسان إنسانا ، و باللغة فقط تطورت الحضارة و تقدم العمران و بلغ العقل الإنساني ذروته ، فدرس اللغة درسا علميا فلسفيا . " (4)

فن اللغة اللغة فن : Seniologie منذ أ حدد سوسير مبادئ اللسانيات و هو يبشر بعلم لاحق هو علم العلامات مقرا بأن دراسة لغة الإنسان و التمكن من آليات عملها يحيل بالضرورة إلى إكتساب عناد منهجي كاف لدراسة جميع أنماط اللغات الأخرى ، أو أنظمة التواصل غير اللسانية (وغير البشرية أيضا) ، أي أن قراءة الدليل اللساني تحيل على قراءة الدليل و كفى ، دون تحديد لنوع هذا الدليل و بسرعة اصطدم العلماء (منذ خمسينيات القرن العشرين) بتحديد هذه اللغات غير اللسانية (أو غير الكلامية) فوجدوا أنفسهم

أمام هذا الصنف من الأسئلة فيما يتعلق بالتواصل الفني (في ميدان الفنون التشكيلية مثلا) :

هل توجد سمة أساسية مشتركة بين كل هذه الفنون سوى مفهوم مبهم هو مفهوم "التشكيل"

La phastique

؟ هل توجد وحدة شكلية يمكن تحديدها على أنها الوحدة التي تدخل في تكوين كل هذه الفنون أو في أحدها ؟ و لكن ما هي وحدة التصوير و الرسم ؟ هل هي الشكل أم الخط أم اللون ؟ و هل هذا السؤال -إذا طرحنا بهذا الشكل -له معنى ؟ " (5)

ووجد السيميولوجيون الجدد -آنذاك -أنفسهم أمام محاولات منهجية للإحاطة بموضوعهم و لضبط طريقة عملهم فقرروا أنه لا بد لكل نظام سيميولوجي يقوم على العلامات أن يخضع لشرط احتوائه على ما يلي : (6)

1- قائمة محددة من العلامات .

2- قواعد للتنسيق تتحكم في تشكيل هذه العلامات .

3- مقولات محددة بعض النظر عن طبيعة المقولات التي ينتجها النظام و عدد هذه المقولات .

وتظهر معانية بسيطة أن الفنون التشكيلية لا تستطيع أن تشكل نظاما سيميولوجية ، وهي بالتالي ليست لغة

و لكن الفنون التشكيلية قامت وستقوم دائما بدورها التواصل الجمالي ، فأين يكمن الخلل ؟ الحل بسيط هو وصف أكثر دقة ، وصف وكلام يحاول الإحاطة بالظاهرة لوضع اليد مع لغتها الخفية اللطيفة خافئة الصوت .

كلام أكثر لوصف ما هو أشمل من الكلام ، وهكذا وجد البحث عن "لغة الفن" نفسه يسقط مرة أخرى في فخ "فن اللغة" هل كان سوسير يتوقع هذا ؟

جدوى جدولة "اللاجدوى"

قد يعترض أحدا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تليّن لأحكام العلم الصارمة لأنها في حريان واندفاع

(وفي تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطورة متغيرة تأبي التقييد إنما

نحن نقيّد جميع (Flux continu)

ظواهر الكون عند استقرارها و ثبوتها ، وفي هذا الاعتراض شيء من الصحة و لذا يقول علماء اللغة اليوم فإنهم ينظرون إلى اللغة على أنها لغة (des cription) إن وظيفة عالم اللغة هي في المرتبة الأولى الوصف الساعة التي يصفونها بها أو على أنها لغة القرن

الرابع او الخامس . وهذا الوصف الدقيق للغة في نقطة معينة من الزمان و المكان هو العلم ذاته " (7)

و إذا كانت الإحاطة بجوانب الظاهرة اللغوية في زمن فعلا مشيعا باللاجدوى لكون هذه اللغة قد تحركت مما تكون النظرية المحيطة بها عليه في حين اكتمالها ، فإن تطور اللغة ليس بالدرجة التي يرسمها بعض الألسنين من الإنزياح ، فمعرفة قواعد اللغة العربية كما رسخت عند الخليل و دونها سيبويه في كتابه منذ ثلاثة عشر قرنا تحيب كثيرا من الإستفهامات اللغوية لمتعاطي العربي في القرن الحادي والعشرين ، هذا من جهة و من جهة أخرى فإن تراكم المحاولات الوصفية طورا بعد طور ، تسمح باستنباط صورة مجملية لهذه الظاهرة ، صورة تتجاوز الأنماط المتغيرة إلى الجوهر، المادة الخام الأولية للغة المدروسة.

جدولة هذه المراحل المتتالية من اللاجدوى تغضي إذن إلى نتيجة لها أكثر من جدوى اللغة المستحيلة :

يقول تعالى : " أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (النساء -82)

" قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا " (الإسراء - 88)

"أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين "(البقرة 23)

كثيرا ما عبرت الآيات القرآنية عن استعالة هذا الخطاب على الغير ، فمرة نقرأ لهجة تحد للكفار بالآتيان بأصغر وحدة ممكنة منه، ومرة يحمل من التراكيب ومن الموسيقى ما يجعل كثيرا من المتعصبين ضد الإسلام آنذاك يلين ويلتقط العناصر غير البشرية (وهذا موضوع لا يزال بحاجة إلى دراسة حديثة تأخذ من التحليل النفسي ومن جماليات تلقي وتستعين بآليات حديثة وبإمكانيات المعالجة المخبرية و القراءة العصبية لهذا الأثر الكامن خاما في بطون الكتب القديمة)وهي حالة عمر بن الخطاب الذين كانوا يقولون في حقه : إنه لن يسلم حتى يسلم حمارة؟استحالة متعددة الوجوه، لأن القرآن برهن مرة بالتركيب ومرة بالدلالة ومرة بالإشارة ومرة بمحمول الخطاب من نبوءات واستشرافات تاريخية وعلمية صدقت طورا بعد طور . . . وهي أيضا الاستحالة التي تأثرت عبر فتق حجب خطابات ولغات سابقة كانت محجوزة ومسجونة في دوائر محدودة (الأديرة ، كتب الكهنة السرية . . . إلخ) فجاء بخبرها هذا الكتاب الذي برهن على لا هويته (مثل الاخبار عن الخاصة أخبار الغابرين .

. . إلخ) كل هذا في إطار عقبة لغوية كبيرة هي كون حامل هذه اللغة انساناً أمياً يفترض فيه عدم الكفاءة على التعامل مع اللغة تعامل غيره من غير الأميين ، لا إنه ممكن اللغة يقضي على مستحيلها.

* اللغة مجال حيوي:

اللغة مناسبة دائمة للتعبير عن حيوية أمة أو حتى إقليم ، فالظروف الطبيعية تكون أحياناً غير مناسبة لازدهار اللغة ، وقواعدها غير ميسرة لأمور تلقينها -كما هي الحال بالنسبة للغة مقطوعة لا تينوم، وسط إيطاليا- إلا أن حيوية أهلها حولها إلى اللاتينية التي ابتلعت الإغريقية القديمة ومحت آثارها من الوجود، لكي تسيطر على جنوب أوروبا وتصبح اللغة الرسمية ، ثم تتقاطع مع اللهجات المحلية فتصبح لغة التعامل اليومي ، وتصبح حاضرة -اليوم وقد تجاوزها الزمن بحكم حركة التاريخ، السائرة باستمرار إلى الأمام في صلب كل اللغات الأوروبية، وكل لغات العالم بشكل ما .

الشيء نفسه عرفته العربية ، التي كان عدد مستعمليها - على كثرة اللهجات- أيام البعثة المحمدية لا يتجاوز ثلاثة ملايين مستعمل كلهم يسكنون شبه جزيرة واحدة ، ثم غزت العالم لتنتشر في كل الأصقاع وعدد مستعمليها نصف المليار نسمة، بعدما كان كل شيء يبشر باندثارها ليقارب عرب الجاهلية .

اللغة إذن عنوان حيوية على شفاة عناصر بشرية معينة، حيوية قد تتجلى بأشكال كثيرة ولكنها تتجلى -أكثر من تجليها بأي شكل آخر -من خلال اللغة .(8)

* اللغة وتأنس الإنسان :

تراجعت لدى علماء نهاية القرن العشرين فكرة ظهور اللغة أول ما ظهرت على النسق نفسه الذي يعرفه ظهور هذه اللغة عند الطفل ، أي بواسطة الصراخ كتعبير قاعدي ثم المد كتنبوع للأصوات وتفريق عاقل لبعضها عن بعض، ثم بواسطة المقاطع الصوتية التي تسمح بظهور حروف واضحة تتألف من أجل أداء أصناف معينة من المعاني . . .

الفكرة السائدة هي التي تعود أصول من المباحث ماكس مولر التي أراد ريبو أن يعارضها فاثراها بشكل ما و التي مفادها أن الكلمات الأولى التي ظهرت والتي استعملها الإنسان هي المعاني الكلية التي انشعبت عنها ألفاظ دالة على الجزئيات والتفاصيل ."

اعتمد ماكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من

البحث في أصول الكلمات في اللغات الهندية الأوروبية. فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انبثقت منها هذه الفصيلة. فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهوده، وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية، وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة". (٥)

ويبدو من خلال هذا الرأي أن الإنسان تدرج من ألوهية الفردوسية إلى إنسانية ما بعد السقوط، انتقل من وعي كلي شامل فوق إنساني، إلى وعي جزئي منقوص، اللغة إذن هي مسار الانتقال من حالة الجنة التي هي المكان الكلي القابل للاختزال في المكان الذي يكون فيه آدم في اللحظة - التي هي مبدأ أبدي قابل للتقلص و التمدد حسب المشيئة - التي يكون فيها، إلى حالة الأرض المبهمة الحزينة الواسعة دون قابلية للاختزال.

اللغة في رحلة تطورها الإنساني قامت برحلة مضادة للغة آدم ما قبل الأرضية التي هي معرفة كلية حاصلة لتقائماً بشكل كامل - حسب تعبير الفلاسفة- . . .

وتطور اللغة حسب هذا الرأي السائد هو تطور الإنسان الأرض الذي هو ابتعاد عن الألوهية و الكمال واقترب من النقصان " الكامل"، من الإنسان الذي ينسى وينسى أنه نسي فيحتاج دائماً إلى تفاصيل إضافية.

* الأداء اللغوي وعريضة المجاز:

"إن نيتشه لا يعتقد بوجود معنى أو دلالة حرفية صحيحة مماثلة لنفسها مطابقة لها. فقد وصف الدافع المجازي (الغريزة المجازية) بأنه حافز تكوين الصور المجازية، وذهب إلى أن أصل كل فكرة هو مساواة مالا يتساوى، و الصورة المجازية تأسيس لتطابق أو هوية بين أشياء تختلف عن بعضها البعض.

ما الحقيقة؟ جيش متحرك من الصور المجازية، من الكنايات وخلع الصفات البشرية على الجماد أم أن الحقائق أوهام نسينا أنها أوهام . . . قطع نقدية انمحي منها الوجه الآخر فاستحالت قطعاً معدنية لا قيمة لها". (10).

يعبر نيتشه عن هذه الفكرة بعدة طرق على اختلاف مراحلها الفلسفية، فهو يرى اللغة جيشاً من المخاتلات يهدف إلى صياغة وهم لا بد منه وافتراس عوالم أخرى هي إمكانات دلالية تسمى " الحلم" و "المستقبل البعيد" و " الماضي البعيد" . . . (هكذا تكلم زرادشت)، ويرى اللغة نظاماً من الدلالات التي تفرضها أطراف متحركة في " أداة اللغة " محولة إياها إلى " أداة حكم وتسلط")

تاريخ الأخلاق) وينظر إلى اللغة على أنها سجن لا يمكن الإفلات منه لأننا إذا جئنا إلى وصف لتحديد استراتيجياتنا تجاهه نجد أنفسنا نعالج الأمر بواسطة اللغة، فالهروب منها يتم بها ولا مهرب سوى دفع عتبات السجن إلى أبعد الأماكن الممكنة بواسطة ممارسة لعبة المجاز وقف التنفيذ الذي يمنحنا فسحة صغيرة قبل العودة إلى السجن (فيما وراء فكرة الخير و الشر). بهذا الميكانيزم الغريب يفسر نيتشه ضرورة المجاز من جهة وآلية تطور اللغة باستمرار وخروجها من مكاسبها الراهنة إلى مكاسب ممكنة .

***كم من مساء في "هذا المساء":**

قال جاكسون: "حكي لي ممثل قديم بمسرح ستانسلا فسكي بموسكو كيف كان المخرج الشهيد يطلب منه ، حينما كان يؤدي عرضا تجريبيا لمسرحية ما ، أن يستخرج أربعين رسالة مختلفة من عبارة "هذا المساء " بواسطة تنويع التلويينات التعبيرية ، وكان أن وضع قائمة مكونة من بضعة أربعين موقفا انفعاليا و بعد ذلك تلفظ بالعبارة المذكورة في توافق مع كل موقف من هذه المواقف ، هذه المواقف التي على المستمعين أن يتعرفوا عليها انطلاقا فحسب من تغيرات التشكيل الصوتي لها تبين الكلمتين البسيطتين ..(11)

إن أوائل الغويين العرب وهو يحاولون مقارنة الظاهرة من زاويتها الصوتية لم يكونوا بعد قد أحاطوا بالمنطق الأرسطو الذي أعطى الأولوية للكلمة على الجملة مصداقا لرأيه القائل بأسبقية الكلمة على الفكر وعلى الجملة) = التركيب النحوي (مجموع الكلمات)

بالتالي ، بل كانوا في ذلك يصنعون إلى صوت منهجي داخلي أوحى إليهم في نهاية القرن الأول الهجري بأن يخرجوا إلى البادية لتلقي اللغة سماعا وهي أصوات قبل تغليها (ثم تغليها) كرسوم وكتشكيلات معقدة طورا بعد طور .

كانت المؤلفات اللغوية الأولى صوتية بالدرجة الأولى (كتب اللغات [أو اللهجات] كتب الهمز ، كتب فعلة و أفعلة ، كتب لفظة واختلف معناه ، كتاب العين كتاب الجيم إلخ) دون إهمال كون المدرسة المعجمية الأكثر شيوعا إلى مراحل متأخرة جدا هي مدرسة الخليل بن أحمد المعتمدة على النسق الصوتي في ترتيب موادها .

وقد مال الدرس اللغوي العربي بدءا من سوسير إلى لسانيات الجملة نأسيا في ذلك بالفيلولوجيا التي كانت تنطلق من الجملة كوحدة للدرس ...وعلى ضوء ما رواه جاكسنقلا عن ستانسلافسكي ، ربما تكون الحلقة الضائعة في جامعاتنا هي

ملتقى اللسانيات السوسيرية مع الدرس اللغوي العربي
الطلائعي ، إذ عثنا نحاول تقريب آراء القدامى اللغويين العرب من
آراء سوسير في حين أن نقطة البداية بالنسبة للدرسين مختلفة
تماما .

*الإنسان حيوان ذو لوغوس :

" " المفردة تعني اللفظ أو الصوت اللفظي ، غير أن الارتباط هذا
الصوت بكيونة متعالية جعلها Logos

صفة تخص قوى التحكم بالكون في الموروث الإغريقي و تخص
الذات الإلهية في الفكر المسيحي ، لكن الفكر المسيحي نقل
الفكرة إلى مرحلة ثانية هي مرحلة الخلق المتجسد و من هنا
كانت الإفتاحية الإنجيلية "في البدء كان اللوغس ، ثم تحول
اللوغس إلى كينونة متحققة " و قد أخذ اللوغس يبحث له عن
امتدادات أهم ما يثيرنا كعرب هو نبوة العم التي ربما ترتقي السلم
التاريخي لتصير أخوة مع لغة ، فبين "لوغس" و "لغة" لا يوجد
سوى الحد الجغرافي الواهي " اللوغس وجد نفسه يمثل الله (
الذي كان وهو كائن دائما في البداية) و يختصر العقل الذي هو
ترتيب لغوي ، و يختزل القدرة على الإبداع ، والمعرفة المتصلة بالله
و النظام والعرف والعام والبدئية ، ثم صار -بفضل المفسرين -
القوى الخفية المتحكم في الكون ، ثم حوله رجال الكنيسة إلى
مرحلة "الحلول " والتجسد الدنيوي ليصبح اللوغوس (اللغة ممتلكا
لكيان ملموس بشري (لحم ودم) هو ذات المسيح نفسها . " (12)
مقاربة اللغة هذه والتي يجب ألا ننسى أن الثقافة الكلاسيكية
فصلت في إنسانية الإنسان بواسطتها (الإنسان حيوان ناطق)
مثيرة جدا من زاوية كون اللغة جسدا ملموسا دالا على قوى غائبة

إنها نفسها صفة الكلمات التي تحضر فيزيائيا لتختزل الأشياء و
تعوضها ، الأصوات (تلك الموجودات الفيزيائية)التي تقوم بتورية
متلازمين دائمتين فهي تحقي الشيء الذي يكون غائبا عنا و
سنحضره من خلال الخصائص اللغوية الفريدة التي تربط الصورة
الأكوستيكية بالصورة الذهنية أبدا .

* لغة تفصل في الأمور : لغة قاطعة كجد السيف

بروي إدوارد ساير ، و هو الخبير الكبير بلغات الهنود الحمر ، أن
كثير من الهنود الحمر حافظوا على تقليد غريب وصلهم من سالف
الحقب البائدة ، ذلك هو التقليد اللغوي القائل بأن التذكير والتأنيث

ليسا حالتين لنمط واحد من الكلام ، بل إنهما خطابان مختلفان تماما ...

" في كاليفورنيا ، وهي قبيلة ظلت محافظة على عراقة أداها اللغوي دون عظيم Yamr "لغة قبيلة

تطور ، تستعمل نوعين من المفردات ونوعين من التراكيب : واحد للنساء و آخر للرجال أي أن لفظة بين تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظه بيت في لغة الرجال . وهناك لغات لا تعرف لفظا واحدا عاما لفكرة عامة ، ولا تستطيع التجريد ، فإننا نقول أكل خبزا و أكل لحما و أكل عنبا ، أما عندهم فلكل نوع من الأكل لفظ خاص ، فعل أكل في "أكل عنبا" هو غيره في "أكل موزا" . ولا يقف الأمر عند هذه الغرائب بل نجد أن الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل " (13)

هذه الآثار نجدها في كل اللغات ، فالعربية تؤثت المار إلى أتان ، والرجل إلى المرأة و الأسد إلى اللبوة ، وشرب Susurer و setaper و prendre و soiter و boire و ingurater في الفرنسية تنتقل بين و إذا كنا ننظر إلى هذه الظواهر اللغوية 'لى أساس كونها تعقيدات قديمة يعمل التطور على نبذها لفائدة قواعد ذات طوعية ، من جهة ، وذات قابلية للتلقين ، من جهة أخرى ، فإننا لا نستطيع تجنب الشعور بحسرة ما لهذه الأنظمة اللغوية المضبوطة التي تفصل في الأمور فصلا تاما كاملا و تقطع كل إمكانيات و لا تكون واسعة شاسعة %الشبهة و اللبس فتكون اللغة بذلك عاملة و فعالة بنسبة 100 دون الوقوف عند التفاصيل ، وهو المنزع الذي تنزع إليه اللغة في تطورها باستمرار .

اللغة وأرشيفها

ميدان العبارات -حسب ميشال فوكو- يتحدد حسب قبيليات تاريخية ، و يتميز بأنواع مختلفة من الوضعية ، وينقسم إلى تشكيلات خطابية متميزة ، لن يتخذ هيئة سهل أو أرض منبسطة تمام الإنبساط لا تنوء فيها و لا إنجراف ، تمتد بلا نهاية ، مثلما اعتقدت ذلك في البداية عندما كنت أتحدث عن "مساحة الخطاب" لن يظهر كعنصر ساكن ، صقيل و محايد ، تأتي الخطابات لنستوي فيه و تنتصب ، كل منها وفق حركته الخاصة ، أو تأتي إليه مدفوعة بدينامية غامضة : دينامية موضوعات وأفكار ومفاهيم ومعارف . بل يتعلق المر بكتلة معقدة ، تتمايز فيها جهات مختلفة ، وتنتشر فيها حسب قوانين نوعية ، ممارسات لا يمكن أن تكون متطابقة ، وعوض أن نعثر فيه على كلمات تعبر بالأحرف البارزة عن أفكار نشأت فيما قبل ، وفي موضع آخر ، كلمات مصفوفة على الكتاب الميثي الأكبر للتاريخ ، نجدها داخل سمك الممارسات الخطابية ن

وأمام منظومات تقيم عبارات ، مثلما تنشئ الأحداث (لها شروطها و ميدان ظهورها) و أشياء تتضمن إمكانياتها وحفل استعمالها) . فجميع منظومات العبارات تلك (الأحداث من جهة ، والأشياء من جهة أخرى) هي ما أقترح تسميته نظام احتفاظ العبارة و ظهورها "ARCHIVE (14) "

هل من لغة للحيوان ؟...مرة أخرى
هل الدليل اللغوي ميزة انسانية تستثني كل ما هو غير الإنساني ،
أم أن للحيوان أيضا لغة ؟
سؤال متكرر دائما .

وقد وضع ماكس فون فريش في تجاربه الشهيرة حول طرق التواصل لدى النحل أن هنالك لغة لا شك فيها تفاهم بها عناصر النحل ، إشارات مثل التوائر والأقواس والدوائر المزدوجة على شكل الرقم 8 ، وسرعة الدورات ... إلخ ، وهي إشارات دالة على مجموعة معينة من المعلومات المرتبطة بأغراض النحل و ممارساتهم الحيوية .

و لكن الرأي الغالب هو أنه إذا كانت هناك فعلا عملية تواصل لدى النحل ، فإننا لا نستطيع عد هذا التواصل لغة ، لأن سريان المعلومات لا يفرض على الحوار ، فالمعلومة التي تبعثها النحلة لا تستدعي إجابة ، إنها وحيدة الإتجاه ، محدودة الأداء لأنها لا تفعل سوى تهييج أداة تواصلية نغمية متعارف عليها .

و يلخص إيميل بنغنست الفرق بين التواصل لدى النحل كما وصفه فون فريش و التواصل البشري كما وصفته أجيال اللغويين والألسنيين المتعاقبة ، بأنه يكمن في كون اللغة منظومة إشارية ، في حين أن تواصل النحل يمثل قانونا إشاريا ، القانون مغلق وحيد افتجاء محدود الفعالية مستغن عن الأفاق الإجتهدية وغالف لكل هامش من هوامش المناورة ، في حين أن المنظومة هي إسقاط نسق معين على عناصر معطاة ، ولكن النسق منفتح و العناصر متوالدة ، لذلك فهامش المناورة (من خلال الأخذ والرد - الحوار) واسع وأفق التحرك بالعناصر في إطار النسق واسع ، وهذا ما يفسر التطور المستمر للغات البشرية في مقابل السكونية الكبيرة لقانون التواصل الحيواني .(15)

اللغة ما بعد الحداثيين :

" لقد استعمل مفهوم المجاز عند وولتر بينجمن كوسيلة لفهم الأعمال الفنية الطلاعية (اللاعضوية) فهو يصف مستعمل الاستعارة و هو يأخذ عنصرا من الطرف الكلي للحياة و يعزله و ينزع عنه وظيفته (الاستعارة في الأساس شذرة أو شظية ، عكس

الرمز العضوي) ثم يأخذ وصل تلك الشذرات المعزولة بعضها ببعض و يحصل بذلك على الدلالة ، غير أن ذلك المعنى مفترض لأنه لا ينبع من الطرف الأصلي للشذرات " (16)

وهذا يعيدنا إلى الفكرة المتكررة لدى ما بعد الحداثيين حول أن اللغة ليس لديها جديد يظيفه المعجم ، ولكنها تملك بحكم الخصائص القديمة للتركيب النحوي إمكانيات لا متناهية لتوليد الدلالة ونتاج المعنى والمركز على فرضية التلاعب بالكلام (le montage) وذلك عن طريق التركيب (la supereherie) والمخاتلة أو الخداع (le jeu de mot) ما بعد الحداثة تنطلق من أن متعاطي النص الأدبي خرج من دائرة الواقع و دائرة المعنى الحقيقي للغة إلى دائرة الفن والمعاني المجازية للغة ، فلا داعي لمحاولة الفن أن يستعيد الواقع لذلك ف لغة ما بعد الحداثة تقول لمتلقيها حاذر إنني سأعطيك تركيبة عليك تفكيكها واسترجاع حالتها قبل الإحالة ، عليك القيام بعكس التركيب حسب القوانين التي إتفقنا عليها (شأنها في ذلك شأن كل صناعة .)

ويبقى التحدي الأخير بعد إستعادة هذه الشذرات المعالجة أو المركبة أو المفبركة أو المعمول عليها هو أن يتمكن المتلقي من زرع هذه الشذرات في واقعه بحكم تجربته السابقة (التلقي و التشتيت) و ما ينتج عن ذلك من حميمية .

برغسون والعجز اللغوي:

في كتابه عن" الضحك " يلاحظ الفيلسوف الفرنسي هزي برغسون بأن "الكلمات كلها (فيما عدا أسماء العلم) تحدد أنماطا للأشياء و لا تحدد الأشياء، تقارب المسمى مما يشبهه مما تعج به الطبيعة و اللغة ، لذلك فالكلمة لا تحدد من الشيء إلا مظهره الخارجي و مميزاته الأكثر تداولاً ووروداً وانتشاراً بين مستخدمي هذه الكلمة ، والكلمة بذلك تقف بيننا وبين جوهر الشيء ."

وهنا تطرح يعود برغسون إلى أصل اللغة الأول ، فكرة الصور الصوتية ثم الصور المرسومة التي تعوض الحياة و تختزل الموجودات و إذا كانت الإنسانية تشعر منذ أقدم الآماد بالفخر بسبب هذين الإنجازين الكبيرين فإن الفلسفة الحديثة (فلم بروغسون) تشعر بالحزن الكبير الذي لا بد أن يشعر به مستعمل اللغة الذي شغل نفسه بهذه الأدوات الإصطناعية "المسماة اللغة " والتي تقف أبداً بيننا و بين أصناف أخرى من المعرفة ضحينا بها تضحية تامة ونحن ننخرط في سهولة اللغة و بساطة طرائقها في الأداء .

هذا الفيلسوف (دمعة جمهرة أخرى من الفلاسفة الذين وقفوا مطولا عند إصطناعية اللغة و تلاعبها "الشرير" أحيانا بالعلاقة بين الصوت و الصورة من جهة والجوهر في الجهة المقابلة بدءا من نيتشن مروراً بهيدغر ووصولاً على فوكو ، ديريدا ، دولوز وليوطار) يقف حزينا أمام الإنسان الذي أراد أن يتغلسف لفهم جوهر الأشياء ففقد الفلسفة و فقد الجوهر وبقي حبيس لغته.....حبيس "مسافة" هي المسافة التي لامهرب منها بين الشيء المسمى و تسميته ، هذا الشيء الذي أصبحنا لا نستطيع ولوح ماهيته حتى مني كان جزءاً من محيطنا المباشر ، هذا الشيء الذي أصبحنا لا نملك إزاءه سوى القدرة على تسميته .

من اللغة إلى الخطاب :

لنعتبر الآن ماهية العبارة كلبنة من لبنات الخطاب . يقول درايفوس وراينو : "ليست العبارة قولا أو إقتراحا وليست كيانا نفسيا أو منطقياً ، وهي ليست كذلك حدثاً أو صيغة مثالية " إن إختلاف العبارة عن القول يعني أنه بإمكان جملة واحدة أن تؤدي عدة وظائف بحيث تتوقف كل وظيفة منها على السياق الخطابي التي ترد فيه ...

يوضح درايفوس وراينو (في كتابهما) Michel faucault beyont (structuralism and hermeneutics) أن العديد من القوال المختلفة قد تشكل في حقيقة الأمر عبارة واحدة ، كان يقرأ مضيف طائرة نفس الإعلان بلغات مختلفة . ويضيف هذا المؤلفان : "قد تشكل الخرائط عبارات إذا كانت تمثل مناطق جغرافية ، وقد تكون حتى الصورة البيانية للوحة المفاتيح في آلة رقن عبارة إذا ما ظهرت ضمن دليل إستعمال و مثلت الطريقة القياسية لترتيب الحروف على لوحة .

تميز فوكو تميزاً مهماً في عمله بين الخطاب كمفهوم عام ، وهو مجموعة القواعد و الإجراءات التي تحكم أنماطاً معينة من الكلام ، وتلك الخطابات أو مجموعات العبارات نفسها ، إن الخطاب مجموعة من العبارات المباركة و لها قوة مؤسسية ، أي أن لها تأثيراً عميقاً على الطريقة التي يفكر بها الأشخاص و على الكيفية التي يسلكون بها . لكن ، مع ذلك تبقى حدود الخطاب غامضة ." (18)

إستراتيجية اللغة / إستراتيجية الأدب :

طالما أن التحليل التاريخي لا يسمح بعرض مجموعة معينة من الأولويات البنيوية ، فإن بارط . . . ينحاز لتوجيه تفكيره إلى منظور لساني بصفة جوهرية . ومن ثم فإن فرضيته النظرية هي فرضية ثابري بالذات و الذي يقول : "ما الأدب ؟ و لا يمكن أن يكون سوى نوع من توسيع و ممارسة بعض خصائص اللغة " يحاول بارط إذن

تحديد الدال انطلاقاً من نموذج اللغة . وهكذا يتصدى في "مدخل إلى التحليل البنيوي " للإعداد المضاعف لمعجم و تركيب المحكي... ويتمسك بحصر عدد معين من "الوحدات السردية " التي ستكون على مستوى العمل المروي مثلما كانت عليه الوحدات اللسانية على مستوى اللغة ففي المحكي ، كما هو الشأن في اللغة ، فإن الطابع الوظيفي هو الذي يسمح لتجديد الوحدة : كل مقطع من القصة يسمح بأن يدرك بوصفه عنصراً للربط ، ويعتبر إذا ملائماً لإعداد نحو سردي

وإذا ما اعتبرنا التحليل المفصل للعمل السردى يفرض الفكرة نفسها وهي أن توجد بنية لا تتغير و هي ستشكل ، بخضوعها لقوانين صارمة نوعاً من الدال الكوني للمحكي ، فهذه النظرية نتيجة منطقية للتشابه المسلم به بين اللغة والأدب إلى حد قول بارط : "لم يعد من الممكن اليوم اعتبار الأدب فناً قد بهمل كل علاقة باللغة ، منذ أن كان قد إستعملها كأداة للتعبير عن الفكرة أو العطفة أو الجمال ، فلا تنى اللغة مصاحبة للخطاب وهي تمد إليه مرآة بنيتها الخاصة ." (19)

أنطولوجية اللغة واستمولوجيتها (في تفاصيل جوامع الكلم): يرسم محي الدين بن عربي في " الفتوحات المكية " مقاربة فلسفية شديدة الأهمية لمستويات الأداء اللغوي حسب العلاقة المحددة للتواصل القديم بين اللاهوت و الناسوت ، فهو يقول إن هنالك وجوداً أولياً محدثاً للغة لا سابق له (وجود أنطولوجي) ثم تطوير لها عن قصد و دراسة وتفكير سابق (استمولوجي)، وأن جوامع الكلم التي أوتيتها الرسول محمد (ص) تحتوي معارف داخلية مباشرة أوتيتها مفهوم حسب ميكانيزمات إلهية لا تفسير لها وتحتوي حقائق مطلقة لا سابق لها ، كما أن جوامع الكلم هي القدرة على تمحيص القرآن و هو كتاب تراكمي الدلالة و ليس أصيلاً ، وبذلك تنتج عندنا ثلاثة مستويات للغة هي المسند و المسند إليه و الرابطة بينهما ، وفي ذلك يقول ابن عربي

"إن جوامع الكلمة من عالم الحروف ثلاثة : ذات غنية قائمة بذاتها ، وذات فقيرة إلى هذه الغنية غير قائمة بنفسها ، ولكن يرجع منها إلى الذات الغنية وصف تتصف به بطلبها بذاته ، فإنه ليس من ذاتها إلا بمصاحبة هذه الذات لها ، فقد صح أيضاً الفقر للذات الغنية القائمة بنفسها كما صح للآخرى ، وذات ثالثة رابطة بين ذاتين غنيتين ، أو ذاتين فقيرتين ، أو ذات فقيرة و ذات غنية ، وهذه الذات الرابطة الفقيرة لوجود هاتين الذاتين فلنسم الغنية ذاتاً ، والذات الفقيرة حدثاً ، والذات الثالثة رابطة ، فنقول الكلم محصور في ثلاثة حقائق : ذات وحدث و رابطة ." (20)

وتكون الرابطة هي الجانب اللغوي لهذه الطبقات المفهوماتية ، في حين أن الذات هي الله أي الماهية الأولى /الأصلية /الأم ، في حين أن الحدث هو العالم بموجوداته كما لا نستطيع فهمه ووعيه ، لتكون الرابطة هي الأسماء التي تعلمها آدم ، ثم تعلمها الرسول (ص) كي يعلمنا إياها طورا بعد طور .

في إستراتيجية الأطراس (تفكيك اللغات المترابكة) :
(الطرس) ، ومغادها PALIMPSESTE "إن الصورة المجازية الرئيسية يستعملها التفكيكيون هي صورة
أن قراءة النصوص تشبه الكشف بالأشعة على الصور ، هذا الكشف الذي يبدى آثار الكتابة القديمة تحت الكتابة الجديدة

إذا وجدنا في عملية شرح النص على الطريقة التقليدية كلمة تأوي تناقضا لا يمكن حله و يحكم كونها كلمة واحدة غالبا ما تسعمل بدلالات مختلفة متعددة بذلك الإنتباه عن غياب المعني الواحد ،فإننا الرجال عند تلك الكلمة ، وإذا بدا لنا أن صورة مجازية تخفي أو تكبت ما يترتب عنها ، فإننا سنحط عند تلك الصورة أيضا ، سننتج مغامراتها خلال النص و تفككها و نكشف أنها بنية إخفاء ، موضحين خروجها عن معاييرها و كذلك طبيعتها اللامحددة ، لقد أعطى ديبرا منهجيا في قراءة "النص " يشبه كثيرا الإقتربات البسيكو تحليلية في مجال الأمراض العصبية ، إذ أن "القراءة القرية "التفكيكية بعد إستنطاقها للنص تنفذ من خلال خطوطة الدفاعية ، و تبين أن هناك مجموعة من التقابلات الثنائية متخفية فيه ، وفي كل التقابلات الثنائية -شخصي /عمومي ، مذكر /مؤنث ، مشابه /مخالف ، عقلاني /غير عقلاني ، صحيح /مخطيء ، رئيسي /ثانوي ،.....الخ -نجد الطرف الأول مبخلا أو مفضلا أو علويا ، ويوضح التفكيكيون أن هوية الطرف "المبجل " تتوقف على إقصاء الطرف الآخر ، ويبينون أن الأولوية تعود في الحقيقة للطرف الثاني و ليس الأول .

و تتمثل طريقة دريدا في فحص دقائق اللحظة غير المحددة و الإزاحات التي تكاد تغلت من إدراك القارىء و تركيزه ،فهو لا يبحث عن لحظة الإنلباس أو التورية التي تكون قد أدمجت في المعنى الكلي الموحد لنظام النص فحسب بل أيضا عن اللحظة التي تهدد النظام بالإنهيار حقا ".(21)

اللغة المخلصة:

يروى الأنثروبولوجيون عن أن سكان المحيط الأطلسي الأكثر عزلة (الماوري ، سكان جزيرة التي يسميها أهلها" رابا نووي"بمعنى : مركز العالم أو" سرّة العالم" يملكون لغة مشبعة بالرموز paques لغة بعيدة جدا عن اللغات الأخرى تتكون من جمل قصيرة جدا ، أغلبها يتخلص في كلمة أو كلمتين فقط ، لغة صافية تخلصت من الشوائب .

و إذا كان الدارس يستطيع تفسير هذه البساطة المفرطة ببساطة حياة الماوري (عبيد "الرجل الطائر")فإن الظاهرة الأشد جلبا للاهتمام هي كلمات ممنوعة عن غير المتزوجين ولا يعرفها الفرد

في هذه القبيلة إلا في ليلة زواجه ، كلمات خاصة بالتاريخ ، بالآلهة بالجنس الآخر ، بتقسيم المحاصيل ، بحدود الزوج و الزوجة ...الخ ، الكلمات الأساسية وهذه القبائل البدائية يفسرون هذه الظاهرة اللغوية بكون هذه الكلمات تفقد معناها إذا ما تعلمها الصغار ، هي كلمات لا بد من إحاطة تعلمها ، هي كلمات لا بد من إحاطة تعلمها بقداسة كبيرة (إنها كلمات تقال في الأذن فقط) ، هي كلمات مخصصة تعين الرجل والمرأة الجديدين على دخول مرحلة البلوغ والمسؤولية ، تعينها على قطع الصلة مع عالم البراءة واللامبالاة ، وهي كلمات تقال سرا وتتناقل سرا لأنها كلمات مخصصة تعطي مفاتيح الحياة والموت ، الحدود النهائية للإنسان ، كلمات تختصر علم التربية والفلسفة وعلم اللاموت والقوانين والدساتير ، وتختصر الفلسفة كلها .

كل هذا في جزر كانت منقطعة عن الدنيا انقطاعا شبه تام حتى منتصف القرن 18، أين اكتشفت فتحولت تسميتها من "سرة العالم " إلى " جزيرة أعياد الفصح " ، فكأن إكتشاف هؤلاء البدائيين للغات أخرى غير مخصصة على أيدي مسيحيين ممن يؤمنون بالخلاص أفقدهم لغتهم المخصصة فتحول عالمهم من "مركز للعالم " إلى عيد من الأعياد الآخرين . (22)

ما اتفق ميناه واختلف معناه :

الأضداد ظاهرة لغوية فريدة ، قد تكون اللغة العربية هي الوحيدة التي تفردت بهذه النزوة العجيبة ، كلمات تدل على المعنى وعلى ضده في الوقت نفسه ، ورغم أن أبا علي القالي البغدادي الأندلسي أكثر من البراهين على عدم صحة هذا التضاد ، ورد أغلب هذه الاستعمالات إلى تهافت جماع اللغة العربية الأوائل ، إلا أن كتب الأضداد التي ألغت في القرون الأولى للدرس اللغوي العربي تدل على الالتفات المبكر لمؤلفي هذا النوع إلى هذه الظاهرة اللغوية العجيبة ، بل إن كتب الفهارس تذكر جمهرة كبيرة من اللغويين العرب ممن اهتموا بهذا النوع من التأليف : قطرب - الأصمعي - ابن السكيب - ابن قتيبة ...ويبقى أقرب ما وصلنا من هذه الكتب إلى الكمال "كتاب الأضداد " لابن الأنباري الذي يقول ردا عما أنكروا وجود الظاهرة أو من اهتموا بالعرب بالنقص و علماء الطلائع بالتهافت : " ويضن أهل البدع والزيغ و الإزراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم ، وقلة بلاغتهم وكثرة الإلتباس في محاوراتهم عند إتصال مخاطباتهم فيسألون عن ذلك ويحتجون بأن الإسم منبىء عن المعنى الذي تحته ودال عليه وموضح تأويله

، فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب ، وبطل بذلك معنى تعليق الإسم على المسمى فأجيبوا عن هذا الذي ضنوه وسألوا عنه بضروب من الأجوبة أحدهن أن كلام العرب يصح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنه يتقدمها و يأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ."(23)

اللغة في المشروع النبوي :

طالب النبويون في فمرة تألفهم (خمسينيات وستينيات القرن20) بمزيد من العلمية و الدقة المنهجية في تحديد "اللغة" ، واعتمدوا في ذلك على أعمال حاك لا كان وخاصة أعمال كلود ليفي شتراوس ، وقد عملت المقاربات النبوية على التشكيل العلمي الصارم لمواقع معرفية ظلت مطولا ميدانا محصورا في المباحث الفلسفية ، وذلك ببناء منظومات أي تشكيلات عامة لاتعمل عناصرها التحتية إلا في إطارها (اللغة منظومة مغلقة كباقي المنظومات القابلة للتبين) .

وعمل النبويون على أن يدفعوا إلى الأمام بالجهد الموضوعي السابق عن طريق الوصف الدقيق للبنى الإجتماعية و الثقافية المتحكمة في الأداء اللغوي من أجل صياغة قوانين أكثر شمولاً . و هكذا بدا الإنسان ، صانع المعاني ومهندسها بالتلاشي لصالح منظومات محيطية به تدفعه إلى صناعة وهندسة محددين ، وهذا هو المعنى الذي آلت إليه هذه الجهود ، والذي يصوغه كلود ليفي شتراوس في الفصول الأخيرة من كتابه المرجعي "الفكر البدئي " إذ يقول إن الهدف النهائي للعلوم الإنسانية ليس تشكيل الإنسان و إنما تفتيته ، وهو الجهد محاله الرئيس هو التفتيت اللغوي . (24)

الطاقة البدائية للغة في لحظاتها الاعتبائية

في مطلع العشرينيات من القرن الفائت ابتكر السيراليون طرقا جديدة للتعامل طرقا جديدة للتعامل مع اللغة لأجل كتابة الشعر ، فقد كانوا يبحثون عن سبل للخروج من بلاغة الماضي ، لكسر هيمنة النحو المت وارث ، للإنزياح عن مألوف الصور الشعرية والقوالب التعبيرية ، وكانت إحدى هذه المبتكرات إذن هي،ومغادها أن يكتب الشاعر تحت تأثير المخدر أو مادة مسكرة ، L'écriture Automatique الكتابة الآلية من أجل إبعاء كل القوى الرقيبة على الذهن ، من أجل تحرير اللاوعي من سطوة الوعي ...وكانت النتائج جديدة بالاهتمام ، تماما في ذلك مثلما كانت نتائج ابتكار آخر هو

لعبة الحظ (أو لعبة المكعبات) ، وهي لعبة كتابية "تقتصر على كتابة كمية معينة من الكلمات على أوراق مطوية ، ثم اختار هذه الأوراق حسب ترتيبها الناتج عن إختيار اعتباطي أعمى والنتائج في الحالتين نصوص غامضة غريبة مغلقة دون القارئ غامضة ، مهمة ، خالية من المعاني والتراكيب المتعاريف عليها .
عم كان هؤلاء يبحثون إذن ؟.

هدفهم كما يوضحه السيربالي ماكس حاكوب في نصه " من الشعر 1922" هو استعادة طاقة الشغال الكامنة في اللحظة الغابرة لظهور كلمة وارتباطها الأول (الأول جدا والأول تماما) بالمسمى الذي سيكون ارتباطا لا انفصام له . هذه اللحظة السحرية التي يمحوها الإستعمال المتكرر والعادات الإسترجاعية التراكمية للتوظيف اللغوي هي التي كانت الكتابة الآلية أو اللعب بالتراكيب يحاولان إسترجاعها بالربط الأول (بشكل ما) بين كلمتين لم تعرفا ربطا من قبل . ثم تكون شرعية هذا الزواج هي الفن ، هي قداسة الإبداع .

وإذا كانت هذه النصوص لم تفرض ما ما فرضته اللغة المتوارثة من كهرباء التلقي ، ولن تفعل طبعا فإن التجربة حديرة بالتوقف والمعانية .(25)

إحالات:

- 1-ميشال فوكو-حفريات المعرفة -ت-سالم يفوت - إفريقيا الشرق -الدار البيضاء -ط25-1987 ص.35
- 2-م. نفسه ص48
- 3-نصر حامد أبوزيد ، ضمن كتاب "السيمبوتيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد -عيون المقالات -الدار البيضاء ج 1-ص75
- 4-أنيس فريجة : نظريات في اللغة -دار الكتاب اللبناني -ط2-1981-ص14 .
- 5-السيمبوتيقا -م.مذكور ص138
- 6-م.نفسه-ص138
- 7-نظريات في اللغة ص: 34-35
- 8-علي عبد الواحد وافي : علم اللغة -دار النهضة -مصر -ط8-2002-ص: 170-171
- 9-م.نفسه-ص100-114
- 10-مادان ساروب : دليل تمهيدي إلى ما بعد النبوية وما بعد الحداثة - منشورات مخبر الترجمة في اللسانيات والأدب -جامعة قسنطينة -الجزائر - 2002 ص67-68
- 11-رومان جاكسون : قضايا الشعرية : محمد الولي و مبارك حنون -دارتوبقال -المغرب - ط1/1988 ص29
- 12- ميجان الرويلي و سعد البازعي : دليل الناقد الأدبي -دار الكتاب اللبناني -ط2-1981- ص23

13-نظريات في اللغة ص23

14-حفريات المعرفة ص119

- 16- دليل تمهيدي ص176
17- NOUVEL ABREGE DE PLULOSOPHC P100
18- سارة ميلز : الخطاب -تر: يوسف بغول -منشورات مخبر الترجمة في اللسانيات و الأدب
-جامعة قسنطينة ط1-2004-ص47-48
19-فانسان جوف : رولان بارط و الأدب -تر -محمد سويتري -إفريقيا الشرق -الدار البيضاء -
ط1-1994-ص42-43
20-محي الدين بن عربي : الفتوحات المكية -دار صادر -بيروت -د.ت-ج1-ص86
21-دليل تمهيدي ص74-75
22-CARLOS CASTENADO L'HERBE DU DIABLE ET LA PETITE FUMEE-ED
« SOLEIL NOIR PARIS -1972-P117
23-عبد اللطيف الصوفي : مصادر اللغة في المكتبة العربية -دار الهدى -الجزائر ص
24- CLAUDE LEOI SHAUSS : LA PENSES SAUVAGE -BLON -PARIS -1996- P259
-CALIN 25- HEURI DEMAIRE : LA POESIE DE PUIS BAUDELAIRE -ARMANTE
PARIS P-147-14